

قصيدة التواصل في "الأدب الكبير" لابن المقفع

أ/ إيدير إبراهيم

جامعة قاصدي مرباح ، ورقلة

الملخص: نسعى من خلال هذه الدراسة إلى التعرف على مقاصد الخطاب في الأدب الكبير من خلال التأثير الذي يمارسه على المتلقي ، وكذا الاستراتيجية التي يمارسها ابن المقفع للإخبار والتعبير عن الأولين وما بلغوه من العلم. وعليه يجب الأخذ بعين الاعتبار ما تقتضيه نوعية الخطاب من جهة ومستلزمات المتلقي من جهة أخرى كما أنه يجب مراعاة المتلقي في الإخبار ، وهذا ما آل إليه الكاتب في أدبه الكبير من خلال توظيفه لتقنيات الإخبار والحجاج. يقدم ابن المقفع في الأدب الكبير المعلومات بالشواهد والحجج التي تكتسب قوتها من مصدرها وتواترها بين الناس ، ما يجعل المخاطب ينحصر في اختيارها وتوجيهها نحو الغرض المرجو من خلال الطابع القصدي لخطاب ابن المقفع.

إن الغاية من الأدب الكبير هي مجابهة العقول وإقناعها ، بالتالي بلوغ المقاصد ، فعملية الكشف عن التأثير والتأثر والقصد ونوايا المتكلم والفائدة من الكلام والإفهام سيكون من خلال قصد الإقناع وآلياته ، لأن الخطاب الذي يحمل مدى تأثيرا تتضمنه وسائل وأدوات لغوية تساعد المتلقي على اكتشاف ما يعتبره الباحث واقعا وصحيا ، ولهذا لا يتم التأثير بالإقناع إلا عبر هذه العوامل الحجاجية. وعليه ، سنحاول أن نطرح الإشكاليات التالية:

- ما هي المقاصد الإجمالية التي يحويها الأدب الكبير لابن المقفع ؟
- هل سيكشف العنوان كامارة أولى عن مقاصد الكتاب ؟
- هل تكفي الكفاءة اللغوية لفهم مقاصد المرسل ؟
- ما دور القرائن اللغوية في الكشف عن مقاصد الخطاب ؟
- هل يمكن أن نستعين بمبدأ الإفادة لتحديد مقاصد الخطاب ؟
- ما هي الاستراتيجية التي يعتمد عليها ابن المقفع للإخبار ؟

Abstract: This study aims to know the intention in the الأدب الكبير discours, through the influence on the receiver. We will precise the method that used by IBN AL MOKAFAA in order to inform. For this reason he use different argumentation technics such as: the argumentation coordinator and the argumentation stell.

The aim of reading الأدب الكبير is to convince the receiver in the ancian and the receiver nowdays.

Key words:

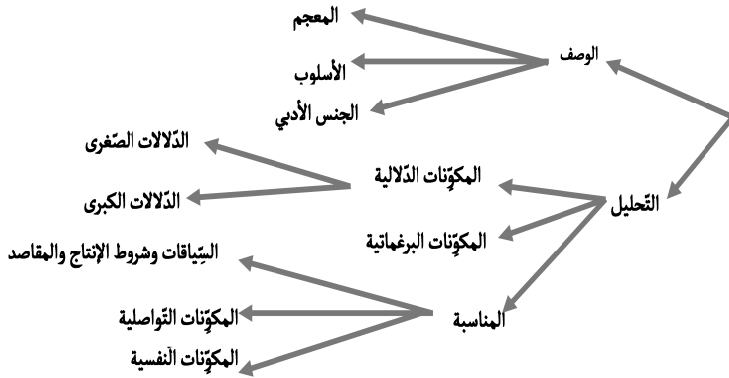
Pragmatic study, sender, receiver, intention, context, argumentation.

مقدمة: إن الخلفيات المعرفية التي يلجأ إليها المخاطب في خطابه تجعلنا نقف عند مفهوم المرجعية ونشير إلى قيمتها في فهم الخطاب ، فذكر "جورج مونان" (George Mounin) أن

العلاقة بين العلاقات اللغوية والعالم الخارجي هي التي تحدّد أبعاد الخطاب الحقيقية فيقول: "إنّ اللغة في ذاتها هي مجموعة من البنى والأشكال ، وجودها يرتبط بتجربة المتخاطبين في العالم" ⁽¹⁾. وإذا كان التّواصل يشترط وجود مرسل هو مصدر الرّسالة ومرسل إليه مهمته قراءة الرّسالة وفهمها ، فهو أيضا (أي التّواصل) يشترط وجود معنى يُراد تبليغه لغرض الإخبار أو التّأثير. وإدراك هذا المعنى يختلف بحسب وضعيات إنتاج الكلام وتأويله ، وبحسب المرسل والمرسل إليه والعلاقة التي تربط بينهما ⁽²⁾. ومن المفاهيم المرتبطة بالمتكلم ، والتي تُؤخذ بعين الاعتبار في الدّرس التّداولي ، ونجد لها صدى في التّراث البلاغي مبدأ القصدية.

1- مقصدية الخطاب الافتتاحي:

1-1 في مفهوم القصد والقصدية: يرتبط القصد بالمرجع العام القائم على التّعريف على المستويات اللغوية للخطاب والمرجع الخاص القائم على فهم العناصر التّوجيهية وتأويلها قصد ضبط الوظيفة الاتّصالية التي يهدف إليها الخطاب. ويتمثّل المرجع العام في تحديد المعارف المشتركة بين منتج الخطاب ومتقبله ، وهو أيضا ضرب من العقد بين الكاتب والمنتج والقارئ المؤوّل ، ولذلك تكون عملية ضبط الدلالات والمقاصد رهينة التّعريف عليها ⁽³⁾. ذلك أنّ الخطاب نشاط لغوي لا يطلب من قارئه دائما أن يفهمه ، بل وفي كثير من الأحيان يحرضه أن يفعل ويقترح ويؤوّل ويغيّر ، كون النّص تاليفا جمع بين مقصد وعمل ⁽⁴⁾. وعليه ، فلغة الخطاب الأدبي لغة مقاصدية ، ولغة ابن المقفّع إمتازت بلغة تخاطبية في منتهى القصد. والمقصدية من القصد: l'intentionnalité ، والمصدر القصدية ، صفة يكسبها الشّيء من القصد ، والمقصدية مصدر صناعي من المصدر الميمي. ونستطيع أن نرمز إلى القصدية والمقصدية بالهدف الخطابي أو هدف الخطاب ⁽⁵⁾. القصد في المعنى: هو ما ينصّ عليه من المفاهيم الجمالية والتّفسية والاجتماعية والعقدية ⁽⁶⁾. وقديما تعلّق القصد بالنّص فالقصيدة مثلا تبقى من حيث الشّكل الأدبي بناء موزونا فقط معتمدا على مستويات لغوية صوتية صرفية نحوية بلاغية دلالية. والقصدية أهمّ ما يقوم عليه النّص ، ويستند الأدب عموما والخطاب عملية تواصلية متكوّنة من متكلم ومخاطب ، والمخاطب هو المحور الأساس المقصود بالكلام. فالبحت إذن عن قصدية الخطاب هو بحث عن المعنى من خلال قصدية المتكلم ، لأنّ المقاصد تسود الوظائف اللغوية وتصرفها حسب ما شئت وصولا إلى أهداف إجرائية أو جزئية ، يمكن عبرها الوصول إلى تحقيق الهدف الفعلي ، كما يرتبط القصد بالعلامة حين الاستعمال وكذلك بالمتكلمات البرغماتية التي تشكّل عالم الخطاب. وتبقى مسألة القصد تقوم على قدرات القارئ اللسانية والثّقافية والمعرفية ، ولذلك تتعدّد القراءات وتختلف المقاصد وفقها ، وهذا ما سنوضحه في الشّكل التّالي ⁽⁷⁾:



فالقصدية تدفع المرسل إلى اختيار ما يراه مناسباً وحالة المتلقي ووضعها هو نفسه كمتكلم، والموقف والظروف المحيطة بالخطاب، كما تكشف عن إيديولوجية محدّدة يريد المرسل أن يحققها.

2-1 دلالة العنوان: يعدّ العنوان من أهمّ عناصر النّص الأدبي وملحقاته الدّاخلية، نظراً لكونه مدخلاً أساسياً في قراءة الإبداع الأدبي، كما يعتبر عتبة النّص وبدايته وإشارته الأولى وهو العلامة التي تطبع الكتاب أو النّص وتسمّيه وتميّزه عن غيره، وهو كذلك من العناصر المحيطة بالنّص الرّئيس، إلى جانب الهوامش والمقدّمات والمقتبسات والأدلة وغيرها، كما يعدّ مدخلاً إلى النّص وإضاءة إلى ممرّاته المتشابكة. وأصبح يُنظر إلى العنوان ضمن سياق نظري وتحليل عام يعتني بإبراز ما للعبّات من وظيفة في فهم خصوصية النّص وتحديد جانب أساسي من مقاصده الدلالية.

إنّ العنوان الذي ندرسه هو (الأدب الكبير) لصاحبه "ابن المقفع"، فكلمة "أدب" تعني التّهذيب والخلق كقوله (ص): "أدبني ربي فأحسن تأديبي". كما تعني الرّياضة التّفسيّة أقرب منها إلى المعنى الذي نفهمه من كلمة "أدب" في وقتنا الحاضر أو المعنى الذي كان يفهمه العبّاسيون من هذه الكلمة أيضاً في القرن الثّالث أي نهاية العصر الأموي وبداية العصر العبّاسي.⁽⁸⁾

ولم تخل الكلمة أيضاً من معنى التّعليم، إذ ذاك من رواية الأخبار والأشعار وأحاديث الأوّلين وسيرة الأبطال وغيرها. فكان الأمراء يسخرون العلماء لتأديب أولادهم، فامتازت حياتهم بحسن الخلق ورقة الشّمائل وحسن الصّفات، وهذا ما فهمه ابن المقفع من كلمة "أدب" آنذاك. ولأجل هذا الغرض وضع كتابيه (الأدب الكبير والأدب الصّغير) فهو يظهر فيهما كأنّه معلّم أخلاق يتناول فيهما أموراً أخلاقية في جوهرها.

إنّ وظيفة العنوان ليست إعطاء فكرة عن محتوى النّص فقط، بل وتتمثّل في إثارة فضول القارئ لمعرفة مقاصد هذا العنوان عن طريق التّأثير الذي يمارسه على المتلقي وصولاً

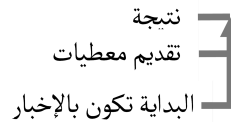
إلى درجة الفهم والوعي التّام له. وإنّ معنى (الأدب الكبير) هو ما سمّاه صاحب الفهرست باسم "ما قرّ حسيّس" فقد ذهب الأستاذان "هوفمان" و"جوستي" إلى أنّ اسمه محرّف عن: "مه فراجو شناس"، وشرح هذه الكلمة يكون كالآتي: "مه" بمعنى: عظيم أو كبير، و"فراج" بمعنى: سموّ أو علوّ، و"شناس" بمعنى: الشّرح أو الفهم، فيكون المعنى الإجمالي لهذه الكلمات شيئاً قريباً من قولنا: الكتاب الكبير في المعارف العالية، وهو كتابٌ بالمعنى الصّحيح، فله وحدة وله موضوع، والموضوع هنا مقسوم إلى قسمين: أحدهما في علاقة الرّاعي بالرّعية والآخر في علاقة الرّعية ببعض⁽⁹⁾. ونجد أنّ ابن المقفّع تناول ذلك ضمن معادلة النّصح والإرشاد، فكانت أبواب "الأدب الكبير" على الشّكل التّالي: الباب الأول: في آداب السّلطان. الباب الثّاني: في صحبة السّلاطين. الباب الثّالث: في الأصدقاء. هذا البناء يجعل هذه العناوين كلّها تكشف عن معاني العنوان العام ضمن سيّورة دلالية، كما أنّ "الأدب الكبير" العنوان العام تشكّلت في داخله عناوينٌ نصّه، فتعلّق العنوان مع ما لفصوله من ذلك الشيء الذي يجعله في حركية مستمرة تكشف عن المقصد العام.

علاقة العنوان بصاحبه: إنّ خطابات ابن المقفّع تعدّ عناصر العنوان، كما أنّها متتالية ووحدات وظيفية، وهي من مراحل تكوين البنية العامّة التي تتمثّل في الفكر التّربوي لدى ابن المقفّع الذي يبدو في فلسفة الإصلاح التي يدعو إليها وإرساء فكرة الخير والسّلم والأمن فالعنوان إذن هو النّص وبؤرته الكبرى التي يتمحور حولها، وما النّص إلّا تكملة للعنوان وتمديد له عبر التّوسع فيه وتقليبه في صيغ مختلفة. إنّ "الأدب الكبير" هو العنوان الذي وُضع للكتاب، وتشكّلت في داخله آراء وأفكار قد تتعلق مع صاحبها ابن المقفّع، فهذا العنوان يتواصل مع ما قدّمه ابن المقفّع من منجزات أدبية، وما حمّله من عناوين تعبّر عن تجربته وما لعصره ومرحلته من سمات عنونة خاصة، فوجد من ذلك: الأدب الكبير، الأدب الصّغير، رسالة الصّحابة، كليله ودمنة... الخ، كلّ هذا نتاج ثقافية تأثّر بها ابن المقفّع ومنتجها المعرفي. هذا كلّّه من مراحل تكوين بنية العنوان، وضمن هذا يتجلّى دور القارئ الذي يبحث عن العلاقة بين العنوان والنّص، وكما يبحث في المقاصد والعلاقات الرّمزية والإيحائية.

2- الإستراتيجية النّخاطبية: ويعني هذا أنّ الخطاب المنجز يكون خطاباً مخطّطاً بصفة مستمرة وشعورية، ومن هنا يتحمّ على المرسل أن يختار الاستراتيجيات المناسبة التي تستطيع أن تعبّر عن قصده وتحقّق هدفه⁽¹⁰⁾. وإنّ البحث عن مقاصد المتكلّم تأتي بعد القراءة، ومفهوم القراءة هنا هي عملية اكتشاف كخطوة أولى، فقراءة النّص تستلزم الخوض في عدّة مستويات والتّنقل من عدّة مراحل، وذلك يتمّ بشكل تدريجي انطلاقاً من مرحلة انطباعية أولى تشكّل مبرّراً لمواصلة القراءة، فحالة استنطاق المبرّكات ومفردات النّص تتبعها حالة تأويل أو مرحلة كشف القصد وفق رؤى معيّنة.

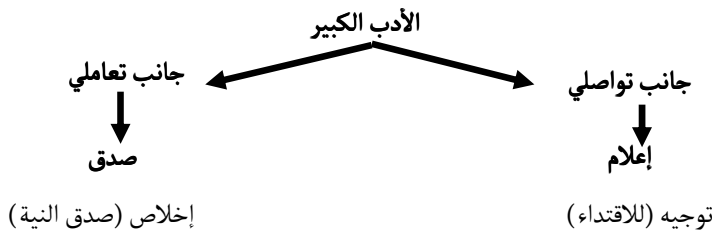
افتتح ابن المقفّع كتابه بمقدمة في جزئين تمثّل ملخصاً لها سيأتي من مواضيع مفصّلة لاحقاً ، وهي مرحلة يتمّ فيها وضع القارئ في السّياق ، حيث يحسّ بوجود نوع من الفضول يدفعه لاستكمال قراءة ما بقي من الكتاب ، وصولاً إلى المعنى الكامن في عمق النّص ، وذلك يتجاوز المعنى السّطحي إلى العميق. إذن ستكون هذه المقدّمة قراءة تكوينية استنطاقية لمقاصد لاحقة ، يقول ابن المقفّع: "...ووجدناهم لم يرضوا بما فازوا به من الفضل الذي تسمّ لأنفسهم ، حتى أشركونا معهم في ما أدركوا من علم الأولى والآخرة ، فكتبوا به الكتب الباقية وضربوا الأمثال الشّافية ، وكفّونا به مؤونة التّجارب والفطن ، فكان صنيعهم في ذلك صنيع الوالد الشّفيق على ولده الرّحيم البرّ بهم ...ولم نجدهم غادروا شيئاً يجد واصف بليغ في صفة له مقالاً لم يسبقوه إليه ، لا في تعظيم لله عزّ وجلّ وترغيب فيما عنده ولا في تصغير للدنيا وتزهيد فيها...فمن ذلك بعض ما أنا كاتب في كتابي هذا من أبواب الأدب التي يحتاج إليها النّاس".⁽¹¹⁾ تندرج هذه المقدّمة ضمن أفق البحث في فكر ابن المقفّع الموجّه لإنتاج خطابه ضمن رؤى مختلفة ، فنلتبس في هذه المقدّمة سلطة قول موجّهة إلى كلّ القراء ، لأنّه نتاج ظروف معيّنة جعلته يقول ما يقول.

1-2 المرسل: وهو القطب الأول من أقطاب العملية التّواصلية ، ويعتبر الذات المحورية في إنتاج الخطاب ومالكه والقائم بيّته ، كما نجد عنده سلطة التّحكّم في تقنياتها ، حيث يعتمد على جميع الوسائل لتبليغ مقاصده⁽²¹⁾. ويعرض تحقيق هدف فيه ، ويجسّد ذاته من خلال بناء خطابه باعتباره استراتيجية خطابية تمتدّ من مرحلة تحليل السّياق ذهنيّاً والاستعداد له ، وبها يضمن تحقّق منفعة الذاتيّة بتوظيف كفاءته لنجاح أفكاره⁽¹³⁾. والمرسل في "الأدب الكبير" هو ابن المقفّع ، فنجد في هذه المقدّمة يزوّد القارئ بمعارف لم يدركها سابقاً ، فيرى في الأقدمين المثل الأعلى. والإخبار عن السّلف كان ضمن إشارات تتمثّل في: إنّنا وجدنا النّاس قبلنا كانوا أعظم أجساماً/أشدّ قوّة/أدركوا من علم الأولى والآخرة...الخ. لقد أوصل ابن المقفّع إلى القارئ من أخبار الأوّلين ما فيه الكفاية في بداية هذه المقدّمة ، ليصل إلى نتيجة وهي الأخذ من علمهم والاقتداء بسيرتهم والنّظر في كتبهم. ومن أجل الوصول إلى المقاصد يعتمد مسارا حجاجيا نوضحه في المخطّط التّالي:



وهي طريقة صالحة للإخبار عن الأوّلين ، يريد الكاتب من خلالها أن يغرس في المجتمع أخلاقاً مثالية وواقعية ، فكلّ خير يجب أن يُحصّل وكلّ شرّ يجب أن يفصل ، وفي الأخير نكشف عن قصيدة مفادها أنّ الغرض منها ليس الإخبار عن الأوّلين ، إنّما هناك قصيدة أخرى تتمثّل في أنّ صلاح أمر النّاس والبلد يبادر إليه العلماء والأدباء.

ينتقل ابن المقفّع في الجزء الثّاني من المقدّمة ليعرض مسائل أخرى يريدها في الثّاس تضمّنت قوانين الحياة عنده ، وقد عُرضت في شكل (قضية ونقيض) ، وبالتّالي تكون النّتيجة ضمن ثنائية (الإيجاب والسّلب) ، وهذا ما سنوضّحه في هذا الشّكل ⁽¹⁴⁾ :



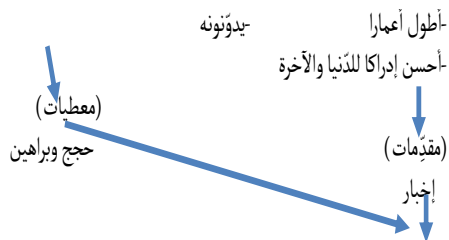
إنّ التأمّل في هذه المقدّمة يجعلنا ندرك مدى كفاءة التّعامل فيها وكفاءة الاستدلال أيضا فهذا لا يجعلنا نفكّر في متلقّ يجد ما فيه شك فيما تحمله هذه المقدّمة من مقاصد .

لقد جاءت المقدّمة الثّانية تعبيرا عن رؤى يريدها ابن المقفّع في الثّاس ، ويعرّف المخاطب المفترض لتيسّيل الطّريق لفهم خطابه من حيث المواضيع المعالجة ، وكذا نوعية العلاقة بين المخاطب والمخاطب والظّروف التي أنجز فيها الكتاب وغيرها من العوامل التي تساعد على تأويل الخطاب ، فيقول : "فمن ذلك بعض ما أنا كاتب في كتابي هذا من أبواب الأدب التي يحتاج إليها الثّاس".

تضمّنّت المقدّمات منهجا استدلاليا في عرض أفكاره ، والإعلان عنها ، ويمكن التّمثيل له بالشّكل الثّالي :

المقدّمة الأولى : إنّنا وجدنا الثّاس قبلنا كانوا :

- | | |
|----------------------|-------------------------------------|
| - أعظم أجساما | - يفتح للرجل منهم باب العلم والكلمة |
| - أوفر أحلاما | - المحافظة على العلم |
| - أحسن إتقانا للأمور | - يكتبونه على الصّخور |



نتيجة: النّظر في كتبهم لتتبّع آثارهم لضرورة الأخذ من علمهم ، الإقتداء بسيرتهم...الخ.

المقدِّمة الثانية: ويقَدِّم فيها قوانين الحياة ، وهي :

- معرفة أصل الأمور في الدِّين
- معرفة أصل الأمر في صلاح الجسد
- معرفة أصل الأمر في الجود
- معرفة أصل الأمر في اليأس والشَّجاعة
- معرفة أصل الأمر في الكلام
- معرفة أصل الأمر في المعيشة
- اجتناب الكبائر
- أداء الفرائض
- عدم تحميل الجسم ما لا يطيق
- الحذر حين مهاجمة العدوِّ
- حسن الكلام من الفضيلة
- حسن تدبير المال

حجج

معطيات

نتيجة (تقبُّل الموعظة وأنا واعظك)

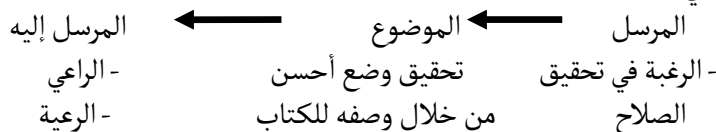
من خلال هذا العرض نجد أنَّ ابن المقفَّع يربط بين المعطيات والنتيجة ، وكذلك بشكل ظاهري أو ضمني ، وإقناع المخاطب يلجأ إلى القيم التي يحتاج إليها النَّاس في الحياة كوسيلة يحجِّج ويدافع بها ، ليتناسب موضوع المقدِّمة الأولى وموضوع الثانية ، فكان في الآداب العامة وما يحتاج إليه النَّاس في دنياهم. إنَّ هذه المعطيات التي قدَّمها ابن المقفَّع والمعلنة عنها في المقدِّمتين رتَّبها حسب أهميتها ومدى حاجة الإنسان إليها في الحياة ، وبنائها قائم على الحجة والاستدلال ، أي ضمن المخطَّطة التالية:

إخبار ← معطيات (حجج) ← فنتيجة: قائمة على ثنائية: (النفع والضَّرر)

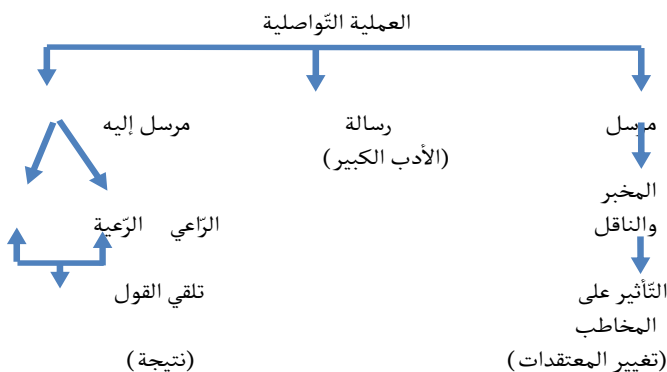
2-2 المرسل إليه: إنَّ وجود المرسل إليه في الخطاب هو ما يسهم في حركية الخطاب ⁽¹⁵⁾ وهو الطَّرف الآخر الذي يوجَّه إليه المرسل خطابه عمداً ، وقد أشار اللُّغويون إلى تأثير المرسل إليه على المرسل عند إنتاج خطابه ، إذ أبرزوا دوره في مستوى الخطاب اللُّغوي ، ففي المستوى النَّحوي يتجلَّى المرسل إليه من حيث التَّذكير والتَّأنيث والعدد... الخ ، كما أبرزوا دوره في سياق الخطاب وأثره ⁽¹⁶⁾ . فالمرسل إليه حاضر في ذهن المرسل حين إنتاج الخطاب ويكون تشخيصه (أي المرسل إليه) أو استحضاره هو الذي يسهم في حركية الخطاب ، بل ويسهم في قدرة المرسل التَّنويعية ، ويمنحه أفقا لممارسة اختيار استراتيجية خطابه وتنظيم آليات لخطابه من أجل نجاح الوظيفة التَّواصلية ⁽¹⁷⁾ . يتوجَّه ابن المقفَّع في خطابه هذا إلى المرسل إليه ، فيشير إليه بكلِّ مواصفاته ونعوته ، فنجدّه يستعمل اللُّغة ليعبِّر عن موقف عقلي أو فكرة أو شعور ⁽¹⁸⁾ ، لتؤدِّي بذلك العملية التَّواصلية. والموضوع في "الأدب الكبير" مقسوم إلى قسمين: أحدهما في علاقة الرَّاعي بالرَّعية ، والآخر في علاقة الرَّعية ببعضها بعض ⁽¹⁹⁾ . ونجد ابن المقفَّع بذلك يشير إلى المخاطب في فصلين: أمَّا الأول في السُّلطان ومصاحبه ، وما يحمل في كلِّ منهما من الصِّفات ، وفي هذا أيضا بابان: فكان الأول في آداب

السُّلطان ، وكان الثَّاني في صحبته ، وتوجّه في الفصل الثَّاني إلى الأصدقاء ، فتناول حسن اختيار الصِّديق وحسن معاملته وكلّ ماله علاقة بالصِّداقة.

يراعي ابن المقفّع في خطابه هذه مقام إنتاج الخطاب وأحوال المتلقي وكذا أشكال إلقاء الخبر إليه وما إلى ذلك من ظروف الحديث ، فهو يستحضر المرسل إليه في كلّ عملية إبلاغية ولو بصورة ذهنية⁽²⁰⁾. وذلك نتيجة للظروف التي سادت عصره آنذاك ، ويمكن توضيح ذلك كما يلي:



اعتمد ابن المقفّع مسارا تواصليا انطلقا من الإعلام والإخبار ، ليصل إلى المرسل إليه بنقله للمعلومات التي يراها ضرورية قصد إفهامه وتعليمه ، "فالمخاطب لا يقول إلا ما يراه صحيحا ، ولا يأمر إلا بما يريد تحقيقه ، ولا يسأل إلا عن الشيء الذي يريد معرفته"⁽²¹⁾. فهو يهدف في هذا المسار إلى التأثير في المخاطب وتغيير معتقداته ، ولتوضيح ذلك نقترح هذا المخطط⁽²²⁾.



يشرح هذا المخطط العلاقة التخاطبية في صورتها الكاملة ويشير إلى مقاصدها الاستهلاكية من جانبها التبليغي أو التعاملي.

3- تجليات المقاصد الموضوعية: سنحاول هنا أن نكشف عن مقاصد ابن المقفّع الموضوعية باعتبارها بعدا من أبعاد الخطاب ، تكتسب فيه قصدية المؤلّف وقصدية المؤلّف بعدا جدليا يتوسّل بها القارئ من أجل التّواصل والكشف عن المقاصد الحقيقية استنادا إلى الوقائع التاريخية والثقافية والفكرية ، "فإنّ كلّ تأويل لا يجوز أن يتناقض مع بعض المعطيات الموضوعية (تاريخية أو لغوية... الخ)"⁽²³⁾. فالمرسل في "الأدب الكبير" هو ابن المقفّع ، والذي وجّه كلامه إلى مرسل إليه وهم معاصروه (الراعي أولا والرعية ثانيا) ، وهذا الخطاب جاء ضمن

سياق معين ، وهو الظروف التي أنجز فيها الكتاب ضمن العوامل النفسية والاجتماعية... الخ والتي تزامنت مع فترة إنجازه ، فنجده يخبر عن الأولين تارة وعن الراعي والرعية تارة أخرى .

3-1-القرينة والإشارة: تعدّ مؤطراً للحقائق في المقام ، فوجودها يرسم علاقتها بالمقامات الصادرة فيها وبالمواقف المتوخاة من ورائها ، ويرى "اللاندر" في موسوعته الفلسفية أنّ القصد يتضمن ثلاث خيارات "...إمّا فكرة الفعل التي نفكر بواسطتها بشيء ما ، وإمّا فكرة ملكتنا لمعرفته ، وإمّا فكرة تعيينات هذا الموضوع الفكري باعتبارها سمات منطقية"⁽²⁴⁾ . ويتمّ تحديد القصد الذي تتضمنه فكرة الفعل التي نفكر بواسطتها بشيء ما عن طريق الكشف عن نظام الفهم الذي يتحكّم بالتفكير في موضوع ما ، وعمّا يعيّن هذا الموضوع في ذهن المفكر لتشكيل الإشارات- والتي ستكون مرجعية-علاقات بين عناصر الكلام في الخطاب⁽²⁵⁾ ، وتلك الإشارة الخطابية عند "مانغونو" وظيفتها تحديد المعطيات الزمانية والمكانية المتضمنة في فعل التلقّظ ، ولكن في مستوى عالم المعنى المكوّن من قبل التشكيلة الخطابية⁽²⁶⁾ . وتضمّ الإشارية عند "أوركويوني" أنواعا من الإشارات أهمّها:

أ-الضمائر: تلعب الضمائر دورا بارزا في الرّبط بين متتاليات النّص عن طريق العلاقات التي تتبادلها بين أنواعها الثلاثة (متكلّم ، مخاطب ، غائب) وهي "تتصل اتّصالا عضويا بتركيب الجملة مع الاسم كما مع الفعل ، ونظرا للعلاقات التي تقيمها بين أجزاء القول ، وهي العلاقات التي يقوم عليها جزئيا أو كليا المعنى"⁽²⁷⁾ . إذن لا يتحدّد مرجعها إلّا في سياق الخطاب لأنّها خالية من أيّ معنى في ذاتها. وتطلّبت الدّراسة التحليلية على أن نحلّل خطابات ابن المقفّع لتكشف عن الشّخص ، فلا تدرك مقاصد النّص إذن إلّا بالقراءة التحليلية ، هذه القراءة التي تعير الانتباه إلى المواضع الفنية التي صيغ لها النّص⁽²⁸⁾ . وذلك من خلال توظيف الضمائر ، فنجده يقول مثلا: أوصيك ، وأنا واعظك ، لا تقل ، لا يعجبك ، يهوون كتمتم ، الذين هم أعداؤك... الخ ، لهذه التراكيب دور هام في توجيه النّص وإبراز أهميته المشكلة له. لذا نجد ابن المقفّع يتلاعب بالضمائر ، وينتقل من ضمير المتكلّم إلى ضمير الغائب ، ومن ضمير المفرد إلى ضمير الجماعة إلى درجة يتشكّت وعي القارئ أو المستمع .

استطاع ابن المقفّع أن يفتح مجالا أوسع للقارئ للتأويل والإحاطة بالمعنى الباطني لمقصديته من خلال تنوّع هذه الضمائر ، ونجد معظم الصيغ التركيبية لهذا الضمير مشكلة ضمن النّسق التّالي: فعل لصفة وضمير المتكلّم والكاف التي تعود على المخاطب المفرد ونجد مثلا: وأنا واعظك ، ألا أخبرك ، يعجبك ، إياك (والتي بمعنى أحذر إياك)... الخ ، وكلّها تفيد الإخبار. ومن الضمائر التي طغت في خطاب ابن المقفّع ضمير الغائب ، أين يعبر من خلاله عن رفضه لهذا الوضع الذي يعاني منه المجتمع آنذاك ، فهذا الضمير يضاف إلى المتكلّم والمخاطب ، وقد أطلق عليه "بنفنست" (Benviniste) اللاشخص ، حيث يقع (هو) تحت كلّ من (أنا) و(أنت) ، كما يقع تحت كلّ ما من شأنه أن يصبح موضوعا للكلام.

وتحليل المؤشّرات التّركيبية التّالية: الذين هم أعداؤك ، على من خالفك ، ألا أخبرك عن أناس كانوا ، عاشوا ،... الخ ، إلى الغائب بصيغة الجمع -وهم الأجداد- أمّا المخاطب وهو ابن المقفّع الكاتب نفسه ، والمخاطب هو المتلقي ، وهذه إشارة إلى رفض ابن المقفّع للظروف السائدة آنذاك ، وهذا يناسب الملامح الصّمنية التّالية: أعداؤك ، لا يعجبنيك ، أخبرك أوصيك ، إحذر ، اعلم ، توخّ ، أترك إيّاك ، أبتليت... الخ. وهذه الأقوال تدل على وضعية تتحاور بين المرسل (ابن المقفّع) والمتلقي ، وهي في واقعها تهيئة للحجاج أو لإلقاء الطرح المراد الإخبار عنه ، والذي يكون معلّلاً بكلّ الحجج التي تؤيّد فكرته. وفي دلائلها أمّرات الثّقة التي تصدر من المخاطب والوعي بمعاني الكلام وأبعاده الواقعية النّاتجة عن وعي وبصيرة ، وهذا يدلّ أيضاً على قدرته على إقناع الآخر أي المتلقي.

تعمّ الظّاهرة الغيبية خطابات ابن المقفّع ، حيث تضاربت علاقة الطّرفين (المتلقي المستهدف) و(المفترض) وكذا الواقع (المفروض) و(المثالي) ، هذه كلّها إشارة إلى روح ابن المقفّع التي تؤمن وترغب في التّغيير ، وقد تجسّد ذلك في كتاباته التي تعتبر إشارات لهذا العالم المثالي الذي يريده ، ومنها: الأدب الكبير ، الأدب الصغير ، رسالة الصحابة... الخ.

ويتمثّل النّظام الزّمني لهذه الأحداث في علامات التّعيين الزّمني التي يتطلّب تأويلها وربطها بمن يتكلّم ، فنجدّه يقول مثلاً: أخاف (الآن) ، احذر(الآن) ، اعلم (الآن) ، لا يعجبنيك (غدا) إيّاك(الآن) ألا أخبرك (الآن) ، قد عاشوا (سابقاً) ، كانوا (سابقاً) ، الذين هم أعداؤك (سابقاً وحاضراً) ،... هذه التّحديدات بمثابة التّفسيرات التي ترفق بحديث المتكلّم ، حيث يضع بها القارئ في جوّ الحدث أو الفكرة ، مادام يودّ الوصول إلى إقناعه ، وهي ضرورية هنا مادامت حجّته في هذا المقام عبارة عن أمثال⁽²⁹⁾ . كما تحوي خطابات ابن المقفّع على المخصّصات (les modalisateurs) ، وهي الإجراءات الدّالة التي ترمز إلى درجة اندماج المتلقّي في مضمون ملفوظه ، أو هي العبارات التي تحيل إلى درجة ثقة المتكلّم فيما سيقول وبها يؤثّر في متلقّيه ، ويربطها أيضاً بحجّته⁽³⁰⁾ . ومنها ما تدلّ على التّردّد مثل: ممكن ، يقين وما تدلّ على الافتتاح مثل: إنّه من اليقين أن ، حيث يمكن ، ولكن اعلم ، ألا أخبرك... الخ. ويبرز اندماج المخاطب في خطابه أيضاً في توظيفه للألفاظ ذات الشّحنة التّعبيرية الدّاتية مثل: الصّفات ، الأسماء ، الأفعال ،... الخ ، هذه المؤشّرات اللفظية اختلفت مثلاً في كلامه عن الوالي أو الحاكم ، فنجدّه يخصّ الحاكم بالحديث تارة باسم الوالي أو السّلطان تارة أخرى ، أو يذكره في صيغة الغائب ، فيسند إليه السّلطة ، ونمثّل لذلك كما يلي:

- السّلطان: الرّاعي الأول ، الحاكم ، صاحب القوّة ، صاحب العلم ، العالم ، المدرك لأموال الدّين والدّنيا ، العادل ، المؤمن... الخ.

- الحاكم: الوالي ، الخاصّة ، الوزير ، صاحب الولاية ، الحرّ ، الرّزين ، الأمين ، المخلص الوزير... الخ.

وفي دلالاتها أمارات الثقة التي تصدر من المخاطب والوعي بمعاني الكلام وأبعاده الواقعية الناتجة عن وعي وبصيرة ، وهذا يدل على قدرته على إقناع الآخر أي المتلقي .
- الرعية: النَّاس ، الصَّدِيق ، مجلس النَّاس ، الاستقرار ، الرِّضَا بالسُّلطان ، الرِّجال ، العامة السُّوقَة...الخ.

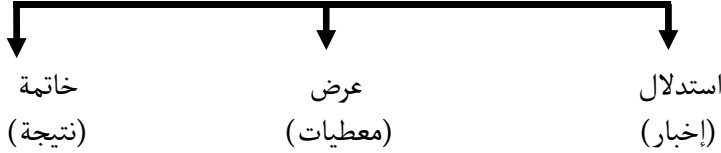
- العلم: العلماء ، الأخبار ، دين ، عقيدة ، أدب ، كتب ، بلاغة ، عقل ، الحكمة ، الأولى الآخرة ، الآثار ، الزَّهد...الخ.

كما اتَّخذ ابن المقفَّع من الحروف (عليك ، لام الأمر ، لا النَّاهية ، فاء السَّببية...الخ) مرجعا يستدل بها عن موقفه ، حيث تكررت في خطابه: عليك بالحذر ، عليك بالجديَّة ، فينقلب عليك ، ليكن ما تريده ، لا تفعل ذلك...الخ ، فكانت في بداية الخطاب ، وهي تكشف عن علاقات جديدة ، وبالتالي تفتح أمام القارئ عالما من المطابقات أكثر أمنا ، الشيء الذي جعل ابن المقفَّع يتلاعب باللُّغة والحجة والحيلة.

2-3 قصد الإقناع وآلياته: تقتض العملية التَّواصلية نظرية استدلالية للتعبير عن رؤى الفكر وإدراك مقاصده ، ولما كانت العملية التَّخاطبية تركز على التَّموذج التَّبليغي والتَّفاعلي وجب ضرورة الاستعانة بصور وأساليب استدلالية حجاجية⁽³¹⁾. ولذلك يلجأ المخاطب في خطابه إلى الحجاج من أجل الإقناع ، وذلك باستعمال وسائل قصد خلق الإعجاب والتثقيف والتأثير ، وهذا ما آل إليه ابن المقفَّع ، فقدَّم من خلال "الأدب الكبير"-وقدرا عن قانون الإخبارية- المعلومات الثَّرية والمناسبة بالشَّواهد والحجج التي تكتسب قوتها من مصدرها وتواترها بين النَّاس ، وتجعل المخاطب ينحصر في اختيارها وتوجيهها نحو الغرض الذي يرجوه. إنَّ الشَّيء الأوَّل الذي يعتبر وسيلة للإقناع في الأدب الكبير هو الطَّابع القصدي فابن المقفَّع قصد تمرير خطابه إلى المتلقي سواء بطريقة مباشرة أو بطريقة ضمنية ، فلما يقول: "وإني مخبرك عن صاحب لي كان أعظم النَّاس في عيني ، وكان رأس ما أعظمه في عيني صغر الدُّنيا في عينه ، كان خارجا من سلطان بطنه...فلا يقول مالا يعلم ، ولا ينازع فيما يعلم... ، واعلم أنَّ خير طبقات أهل الدُّنيا أصفها لك: من لم ترتفع عن الوضع ، ولم تتصنَّع عن الرِّفيع"⁽³²⁾. جاءت الأفكار في هذا الخطاب واضحة ومرتبَّبة ترتيبا منطقيا ، بدأها ابن المقفَّع بقاعدة أساسية وهي توطئ النَّفس على التَّمسك بالصَّدِيق ، ومادام كذلك فلا بدَّ من التَّمهَّل في اختياره ، وذلك يكون من حسن التَّدبير ، ثم وضع لذلك مقاييس ، فإن كان من أهل الدِّين فليكن فقيها ، وإن كان ممَّن يطلب الدُّنيا فليكن حرا ليس جاهلا ولا كذَّابا ولا شريرا ، وهنا يعلن عن قصدية ، وهي الشُّروط التي تتوجب حين اختيار الصَّدِيق ، وأخيرا يضع نتيجة وهي أن الصَّدَاقَة ضرورية.

اعتمد ابن المقفَّع في استراتيجيته الخطابية على مسار حجاجي استدلالي بدأ بالإخبار فتقديم المعطيات وهي بمثابة حجج ، ليعلن بعد ذلك على نتيجة ، ويمكن توضيح ذلك ضمن المخطَّط التَّالي:⁽³³⁾

الاستدلال



كما جاء الحجاج في خطابه على شكل أمثال وحكم وعبر ، وكلّها تُنسب إلى الأوّلين ، ممّا يدلّ على تواترها وتداولها بين النّاس ، ونسبته إيّاها إلى غيره إلّا ليتجرّد من السّلطة الخطابية وحتى يجعلها حجة له وحجّة لمخاطبيه ، ويركّز ابن المقفّع على ميزة الصّدق التي تتجلّى في خطابه ، هذا ما جعله يلجأ إلى الحجة الصّناعية ، وهي الاستدلال بأقوال الحكماء ، فيقول مثلاً: "احفظ قول الحكيم الذي قال: لتكون غايبتك فيما بينك وبين عدوك العدل وفيما بينك وبين صديقك الرّضا..." ، هذه المقولة إحالة لأصحابها ، فهو يسندّها للأوّلين ثم يشرح ويعلّل ويوضّح ، فجاءت أفكاره في تسلسل منطقي ، فكان في كلّ مرة يبدأ بالتحذير من أمر ، أو ينبّه عن شيء غاب عن ذهن المخاطب أو عن أمر آخر ، ثم يقدّم المبررات التي تجعله ينهي عن ذلك الأمر أو يرشد إليه . كما نجده يوضّح الفكرة ويشرحها حتى يبلغ مرحلة الإطناب ، يقول ابن المقفّع عن الغضب: "اعلم أنّ من النّاس ناساً كثيراً يبلغ من أحدهم الغضب ، إذا غضب أن يحمله ذلك على اللّوح والقطوب في وجه غير من أغضبه ، وسوء اللفظ لمن لا ذنب له..." (34) ، ويقول أيضاً: "فإنّه ليس أحد أسوأ فيه حالاً من أهل السّلطان الذين يفرطون باقتدارهم في غضبهم" (35) . ويقول أيضاً: "ليس للملك أن يغضب لأنّ القدرة من وراء حاجته" (36) . ويقول: "احترس من سورة الغضب" (37) . يفترض ابن المقفّع وجوده أمام متلق بطيء الفهم ، ولعلّ الفكرة لم تصله بعد ، ولهذا نجده يفصّل ويشرح ويوضّح ، حتى يصل إلى مرحلة الإطناب .

سعى ابن المقفّع في خطابه إلى إقناع المتلقي بشتى الوسائل ، معتمدا أسلوباً حجاجياً والذي أراد أن يكون منطقياً ، ممّا جعله قوياً في معانيه وفي صوره ومبناه ، ولعلّ ما جعله يميّز بهذه الميزة استعماله للمؤكّدات الخبرية ، والتي يسمّيها "ديكرو" (Ducrot) الرّوابط الحجاجية (connecteurs argumentatifs) ، ويقصد بها الرّبط أو الوصل ، وهي الوحدات اللّغوية أو المورفقات التي تقيم علاقة بين جملتين (38) ، سواء تعلّق الأمر بالظّروف (مع ذلك ، رغم...) أو العطف (الواو ، الفاء...) أو الانصياع بالصّلّة (لأنّ ، بما أنّ ، غير أنّ...) ويعتبر استعمال هذه الرّوابط في الخطاب من الأشياء المهمّة ، كونها تؤدّي دوراً ذا بال ، من حيث أنّها تضيف على النّص الاتّساق وربط أجزائه بالمعنى .

خاتمة: في نهاية هذا البحث يمكن أن نستنتج ما يلي:

إنّ القارئ للأدب الكبير يحسّ بوجود خطاب نصيحة ، لأنّه يشخّص الآفة التي كان يعاني منها عصره ، وفي الوقت ذاته يصف العلاج حتى يأخذ به المتلقي .

لما كان المتلقي هو محور الحجاج توجّه ابن المقفّع إلى القارئ الأول بتمهيره خطاباً مضمرًا وضمناً تميّز بالدقّة والصّواب والحيلة حتى تكون له منفعة تغيير الظروف السّياسية

والاجتماعية ، وإلى القارئ الثاني بكل براعة وذكاء وبحجج تقنعه وتؤثر عليه وتعرفه بما كان يجهل.

إنَّ القارئ للأدب الكبير لابن المقفَّع لا يكاد يتردّد لحظة في أن صاحبه كان على جانب عظيم من حسن الأدب ونبيل الخلق ، لما يحمله هذا الكتاب من الحكم والمواعظ والإرشاد والنصائح.

من خلال قراءتنا لفكر ابن المقفَّع ندرك أنه يريد أن يخضع كل شيء لسلطان العقل. كان ابن المقفَّع يصرّ على الثنائية (السلطان والعقل) ، وقد تحدّث عنها بصورة كبيرة ومنه علاقة الحكم بالعقل ، فكان يقدم (العقل والعلم) في جميع خطابه. رغم أن هذا الكتاب متناه في القدم ، إلا أنه احتوى على بعض الوظائف كالوظيفة التعبيرية والإخبارية والإنشائية-مما يدلّ على قيمته- التي توصّل جاكوبسون إلى صياغتها فهي تخدم سياق الكلام ، منها زاد الأدب الكبير ثراء وإفادة للمتلقّي ليس له بدّا منها. إنَّ استعماله لأفعال الكلام وتخصيصه للإنشاء (الأمر والتّهي) الذي غرضهما التّصح والإرشاد قد خدما ما كان يسعى إليه ويقصده ابن المقفَّع ولقد أهمل الأفعال الكلامية الأخرى التي لا تخدم السّياق إلّا ما جاء عفويا أو قاصدا منه الإقناع كالاستفهام مثلا ، ولقد هيمن الخبر بنفس كثرة الإنشاء ممّا تناسب مع الموضوع المعالج ونوعية المخاطبين الذين وجّه إليهم الخطاب.

تشكّلت البنية الإطارية من تقنيّتي الإخبار والسرد ، وهما تقنيتان تتّسمان بالتلقائية أكثر من الفنية.

إنَّ تتّبع مقوّمات مقام الخطاب المقفّعي في الأدب الكبير تكشف عنه شبكة القرائن القرائية: القولية والتّنظيمية والمعجمية ، والتي تبرز النّظام القولي الذي بني عليه هذا الخطاب.

من خلال هذا الفكر الحجاجي عالج ابن المقفَّع مسألة القضاء وبناء الأدلة وتسلسل الحجج والحكم بالظنّ وثنائية الحق والباطل وصلاح القضاء وفسادهم...الخ.

الإحالات:

1-George Mounin et autres : Dictionnaire de linguistique, P.U.F, 1984, P2001.

2- يحي رمضان: القراءة في الخطاب الأصولي-الاستراتيجية والإجراء ، ط1 ، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع الأردن ، 2007 ، ص 125.

3- ينظر: خليفة الميساوي: المصطلح اللساني وتأسيس المفهوم ، ط1 ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، 2013 ، ص192.

4- ينظر: أوزيسلاف وأورنيباك ، مدخل إلى علم النص ، ص58-59.

5- محمد مغلّاجي وأبو بكر زروقي: مقاربة في ديوان الإبحار في الذاكرة لصالح عبد الصّبور- من بنية النصّ إلى مساحة الخطاب ، مجلة الأثر ، عدد خاص بأشغال الملتقى الدّولي الرّابع حول تحليل الخطاب ، جامعة ورقلة ، 2009 ، ص137.

6- المرجع نفسه ، ص 138.

7- خليفة الميساوي: المصطلح اللساني وتأسيس المفهوم ، ص193.

- 8- ينظر: مجدي وهبة، معجم مصطلحات الأدب، مكتبة لبنان، ساحة رياض الفتح، بيروت، 1974، ص 315.
- 9- ينظر: حمزة عبد اللطيف: ابن المقفع، ط 3، دار الثقافة العربية للطباعة، 1965، ص 132.
- 10- ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب-مقاربة لغوية تداولية، ط 1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004، ص 56.
- 11- ينظر: ابن المقفع: الأدب الكبير، د ط، دار الجيل، بيروت، د تا، ص 7-10.
- 12- ينظر: محمد جهاد جميل وسهير روجي الفيصل: مهارات الاتصال في اللغة العربية، د ط، دار الكتاب الجامعي، العين، الإمارات العربية المتحدة، 2004، ص 15.
- 13- ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص 45.
- 14- فتيحة بوسنة: انسجام الخطاب في مقامات جلال الدين السيوطي، رسالة ماجستير، جامعة تيزي وزو 2007، ص 67.
- 15- ينظر: المرجع السابق، عبد الهادي بن ظافر الشهري، ص 48.
- 16- المرجع نفسه، ص 47.
- 17- نفسه، ص 48.
- 18- ينظر: سبزا قاسم وناصر حامد أبو زيد: مدخل إلى السيميوطيقا-أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة، د ط، دار الياس المصرية، القاهرة، 1986، ص 285.
- 19- حمزة عبد اللطيف: ابن المقفع، ص 169.
- 20- خليفة بوجادي: الخصائص اللغوية في ديوان بوبات التور-دراسة في الوظيفة التداولية، رسالة دكتوراة جامعة قسنطينة، 2006، ص 40-41.
- 21- Maingueneau: Pragmatique pour le discours littéraire, Edition Bordas, Paris, 1990, P105.
- 22- فتيحة بوسنة: انسجام الخطاب في مقامات جلال الدين السيوطي، ص 67.
- 23- رشيد الإدريسي: سمياء التأويل-الحري بين العبارة والإشارة، ط 1، شركة النشر والتوزيع للمدارس، الدار البيضاء، 2000، ص 30.
- 24- أندري لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد 2، تعريب: خليل أحمد خليل، ص 692، نقلا عن : استراتيجيات الخطاب لعبد الهادي بن ظافر الشهري.
- 25- Voir: Marie Noëlle Gary: les termes clefs de la linguistique, Seuil, Paris, 1999, P21-22.
- 26-Ibid, p29.
- 27- شربل داغر: الشعرية العربية الحديثة- تحليل نص، ط 1، دار توبقال، الغرب، 1988، ص 68.
- 28- ينظر: أندري لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، ص 1273.
- 29- ينظر: هاجر مدقن: حجاجية المثل التوصيلي في كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع، مقاربة تداولية، رسالة دكتوراه، جامعة ورقلة، 2010، ص 223.
- 30- المرجع نفسه والصفحة نفسها.
- 31- ينظر: طه عبد الرحمان: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ط 2، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2000 ص 51.
- 32- ينظر: ابن المقفع: الأدب الكبير، ص 124-125.
- 33- محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري تطبيقي لدراسة الخطابة العربية-الخطابة في القرن الأول نموذجاً، د ط، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، 1986، ص 129.
- 34- ابن المقفع: الأدب الكبير، ص 22.
- 35- المصدر نفسه، ص 23.
- 36- نفسه، ص 23.
- 37- نفسه، ص 27.
- 38- ينظر: دومنيك مانفونو: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تر: محمد يحياتن، ط 1، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2005، ص 24.